ثنائية الحلم والواقع

محمود درويش و سميح القاسم.

أ.فاطمة درارس

المركز الجامعي بتمنراست

" يجب أن نترك للكلمات متسعا من الوقت للحلم ."

- غاستون باشلار-

" لغة الأحلام أقوى و أسرع و أفتح من لغة اليقظة ."

- شوبرت -

" ... الحلم معادل التجربة الفنية للشاعر و ليس نقيضا بسيطا للواقع .. إنه العالم تمحى فيه معايير الصدق و الكذب ، و الذي لا يخضع فيه الشاعر لمنطق الظاهرة ، بل يتفانى في عمله مبدعا لذلك الأثر الخالد الذي يمتزج فيه كل من الفن و الفنان بالآخر ."

- شارل بودلار-

" انسوا كل ما تعلمتموه ، إبدأوا من الحلم ."

- طلاب السربون -

" ...لا أذكر من قال أن المجتمعات لا تتكون فحسب من الهموم اليومية المتعلقة بالخبز و العمل ، بالسياسة و الأحداث ، و إنما تتكون أيضا من التخيلات و الأحلام و الرغبات و الرموز ، و بقدر ما تكون رازحة تحت ثقل الحاضر تتحرك حية في مستقبل تتخيله وتحلم به:لا تخن سلاحك أيها الشاعر."

- أدو نيس (علي أحمد سعيد)

إن العالم الذي نعيشه كاد يقضي على العالم الروحي الذي يقيم فيه المبدعون ، فلولا رهافة إحساسهم ، و لولا وجود شيء اسمه الأحلام لما وجد أثرا لحب الحياة التي تستحق أن تعاش ، و يظهر مكان الحلم بعد الوجود بعد غياب المكان الأول الذي اعتدنا العيش فيه ، و يكون ذلك لسببين اثنين هما :**الافتقاد و الاضطهاد** كما هو الأمر مع شعراء الأرض المحتلة (فلسطين).

وكما يقرر الخطاب الشعري أن الحل الوحيد للرجوع للمكان المرغوب فيه ، وامتلاكه هو الحلم و يتم ذلك عن طريق الصور الشعرية ، و الغاية في ذلك الهروب من قسوة الواقع و الارتقاء في جميع الأحوال إلى مستوى الظاهرة الحقيقية ... و هذا الأمر ليس غريبا عند الشعر و الشعراء العرب وغي العرب من الذين (يلعب الحلم) في حياتهم و شعرهم دورا أساسيا ، يقول **رولان بارث** " إن الحلم يمكن من رهافة قصوى ، في المشاعر الأخلاقية ، بل الميتافيزيقية أحيانا ، و يسندها و يمسك بها ، و يستكشفها استكشافا ، كما يكشف عن أدق العلاقات الإنسانية ، عن الاختلافات المرهفة ، و عن معرفة متمدنة ، أعلى ما يكون التمدن . باختصار ، يكشف عن منطق واعي مترابط بدقة غريبة ، لا يبلغها إلا عمل شديد اليقظة ، إن الحلم باختصار ينطق كل ما ليس فيه غريبا أ. أجنبيا ، إنه نادرة غير متمدنة صنعت من مشاعر متمدنة جدا (**كان الحلم متمدن**)."(1)

والحلم على مستوى التحليلي النفسي و كما يفهمه " **فرويد** " " هو الأسلوب الذي تستجيب به الحياة النفسية للمنبهات التي تكتنفها خلال النوم ، قد تكون هاته المنبهات بقايا من النشاط النفسي لحالة اليقظة : وقد تكون تحقيقا لرغبة مكبوتة في اللاشعور ." (2) ، لكنه على مستوى

أوائل من اهتموا بالأحلام ، و قد اعترف بأن للأحلام قوة عجيبة فيها تتكشف ثنائية أنفسنا، لأنها حوار نقوم به و نمثل فيه المتكلم و السامع معا. فبالحلم نصنع عالمنا غير الذي نعيش فيه ، وواقعا تغير الكلمات مجراه.

والحلم تطور مع الشاعر المعاصر ، ويرجع السبب إلى تعقد الحياة المعاصرة ، فكان " الشاعر المعاصر يعيش سذاجة الأحلام الأسطورية و عفويتها ، وحين ذلك الحس الحي النشيط الشعري إلى الالتحام بالعالم استجابات روحية عميقة ، جديدة ، وحيث تجربة ترفض نفسها داخل نظام مغلق من القواعد و المعاني المجردة ."

في الحديث عن ثنائية " **الحلم و الواقع** " تطرح " **خالدة سعيد** " إشكالية تقول فيها :" كيف يتصل الشعر وهو المنبعث عن الحلم بالفعل الثوري الذي يقتضي نظرا موضوعيا يقيم الواقع والزاما عمليا وجسديا بنقصه و تغييره ؟ " .

هكذا استطاع الشاعران " **محمود درويش وسميح القاسم** "أن يجمعا بين نقمة الواقع تارة وحلمهما في تغييره تارة أخرى، لأن :"الاقتران بين الحلم والقصيدة كفيل باكتشاف القارة المفقودة في عملية الإبداع الشعري... فثمة الحلم قائد للنص أو تابع له ، و هل المجاز سوى حلم اللغة للارتقاء بها من عتمة المألوف المستهلك إلى إشراقة الغريب المبتكر." (3)

وكما هو متفق عليه ، أن الأحلام تبث في النص إنسانية و تدفق بفعل شيء مهم يسمى " **ماء الشعر** " ، وهذا الأخير لا نجده في الشعر وحده ، حتى في قصص الأحلام التي استأثرت خلال قرون قليلة المنصرمة بمعظم الانتباه ، واستحوذت على الاهتمام، هي تلك التي حصلت فيها حالات الإلهام الإبداعي خلال النوم أو في أحلام اليقظة ، ومثال ذلك قصيدة الشاعر " **كلوردج** " الموسومة " **قبلخان** " .

والآن نأخذ شكلها الآتي و الأسلاك كلها ترقبها بعيونها البغيضة ، و إن أراد يوما أن يصلها فإما شهيدا أو شريدا ، يقول الشاعر :

" **حبيبتهم ..**
وترجعهم إلى شريانه
والحلم أصدق دائما ، لا فرق بين الحلم
والجسد المخبأ في شظية ."(4)

فالشاعر هنا هو مطالب بضرورة إيجاد وسيلة ليربط بين حلمه الشعري و بين الواقع الرهيب ، فلجأ إلى الحلم و جعله " **كمعادل موضوعي** " لتجسيد أحلامه و طموحاته، على سبيل المثال – لا الحصر – يمكننا أن ننظر إلى الحزن الذي يكتظ به ديوان الشاعر ، على أنه الوجه الناقض للسعادة المفقودة في ظل غياب العناصر التي يتحقق بها الحلم الذي حلم به الشاعر و جعل منه مدار لحياته الذي تغلق سحابته بفداحة ظلم المحتل الصهيوني في مواجهة حلمه . يقول في قصيدة أخرى "**حنين الضوء** ":

" **عيناك**
أحلم أن أرى عينيك يوما تنعسان
فأرى هدوء البحر عند شروق الشمس ."(5)

يشبه الشاعر " **محمود درويش** " الأرض بالمرأة ، و يمنحها بعض صفات الأنوثة أو كلها يغوص فيها الرمز إلى عمق الصورة ، كما نلمس شوقا كبيرا في أن يرى أرضه مستقلة تنعم بالحرية ، و لصعوبة تحقيقه (الحلم) حلم به في الخيال ، مستعينا بالرمز ليعبر عن كل ما يجول بداخله ، وبحكم المسافة الممتدة بين الحلم و إمكانية تحقيقه تبقى واسعة ، فهو شبنه بالحنين إلى سذاجة الأحلام الأولى ، يزداد قوة كلما ازدادت الحياة المعاصرة تعقيدا أو تزييفا ومادية .(6)

وفي قصيدة أخرى "**جندي يحلم بالزنبقة البيضاء**" ، وفيها حوار بين الشاعر والجندي، ومن هنا استطاع الشاعر أن يستدرج هذا الجندي المضلل ليرى البون الشائع بين ما رسم من صورة فلسطين، وما وجده حقا، فقال:

" ... دخن، ثم قال لي
كأنه يهرب من مستنقع الدماء :
حلمت بالزنابق البيضاء
بغصن زيتون ..
بطائر يعانق الصباح
فوق غصن ليمون ..
و ماذا رأيت ؟
رأيت ما صنعت
عوسجة حمراء
فجراتها في الرمل..في الصدور..في البطون ..
و كم قتلت
يصعب أن نعدهم ..
لكنني نلت وساما واحدا." (7)

فالجندي اليهودي قد ضاق بالوضع الذي يعيشه دائما ، فهو يحلم كما يقول الشاعر :

" إنني أحلم بالزنابق البيضاء
بشارع مغرد و بمنزل مضاء
أريد قلبا طيبا ، لا حشو بندقية
أريد طفلا باسما يضحك للنهار ، لا قطعة في الآلة الحربية

جئت لأحيا مقطع الشمس

لا مغربها ." (8)

يمكن الإشارة هنا إلى الاتجاه الذي يسميه " **محمود درويش** " بأنسنة العدو ، و لهذا قال **الشاعر سائلا :**

" أنلتقي ؟

أجاب : في مدينة بعيدة." (9)

لقد اقتربت نظرتهما بل كادتا تندمجان ، و من ثمة كان جواب الجندي أن اللقاء بين الشاعر يمكن أن يتم ، و لكن في مدينة بعيدة عن فلسطين ، في مدينة يعود هذا الجندي فيها لإنسانيته، و يتحرر من فساد ما أشربته له الصهيونية الفاشية ، و بذلك يكون متكافئا مع إنسانية الشاعر .. و قد برع الشاعر في ختم القصيدة بقوله:

" ودعني ، لأنه

يبحث عن زنابق بيضاء

عن طائر يستقبل الصباح

فوق غصن زيتون

لأنه لا يفهم الأشياء

إلا كما يحسها ، يشمها

يفهم – قال لي –

أن الوطن

أن أحتسي قهوة أمي

أن أعود آمنا ، مع المساء ."(10)

و يظل ديوان " **آخر الليل** " في نظر الشاعر هو الأقرب من التوازي الإبداعي بين الإديولوجيا و الفن ، و في تجربته في هذا الديوان ، يقول : " و لكني أشعر أن مسافة التطور بينه و بين " **عاشق من فلسطين** " و " **أوراق الزيتون** " أوسع ، أشعر أن كلمات "**آخر الليل** " أكثر ظلالا و إيحاءا ، و صار الزمن عندي أغنى بالكثافة ، و إن كان الجو العام شفافا ، و استطعت كما يبدو لي ، أن أحقق الصداقة بين الحلم و الواقع ، و بين سبب الرمز و مدلوله ، و تلقائية العلامة بين الفكر و الوجدان و في الحوار القاسي أو الصراع بين الموت و الحياة ، انتصرت على الموت دون أن أجعل إيديولوجيتي تتدخل ظاهريا ." (11)

إن الشاعر" **محمود درويش** " من بداية أعماله حتى نهايتها نجده محموما بهاجس الحلم ، و في القصيدة نفسها يجسد لنا الشاعر حلم الجندي اليهودي بجوهره الإنساني ، إذ يقول : " و أريد أن أتباهى بإنسانيتي ، بأني أول شاعر عربي عرض جنديا إسرائيليا ، حتى بعد حرب حزيران ، بجوهره الإنساني " (12) و الإنسانية التي يتحدث عنها الشاعر هي تلك التي قال عنه " محمد توفيق الصواف " :" الإنسانية الراسخة و الأصيلة لا تهيننا وحشية الآخرين و لا تمنع تدفق خيرها عن أحد ، حتى عن عدوها في لحظة ضعفه ."

أما ظاهرة الحلم عند الشاعر " سميح القاسم " نجدها بارزة في أعماله الشعرية ، فهو الآخر حلم بأرض تسودها الطمأنينة و السلام ، يقول :

" وأرسم على الجدران

خارطة،

وعصفورا

وزهرة

وأحلم قبيل النوم مرة

ليعود للأرض السلام

وتعود في الناس المسرة ." (13)

ويبقى كل من السلام و الحرية و الطمأنينة .. مجرد أحلام يحلم بها الشاعر، لأن الواقع عكس ما يحلم به،"ومنه يبقى الصراع بين ما يحلم به وبين ما يعيشه واقعا، وكمحاولة للخلاص و التغلب عليه (الصراع) حاول الشاعر تجسيد هذا الأخير (الحلم) في أمور كثيرة من بينها الأسطورة." (14)

وليس بالضرورة أن نجد مصطلح " **الحلم** " في القصيدة واضحا ، ففي بعض الأحيان نجد بعض الأعمال الشعرية غير قادرة على الإفصاح عن ماهية الحلم أو تحديد عناصره ..لكن هذا غير مهم ما دام الشاعر قادر على أن يستمد منه الطاقة الضرورية التي تندفع بالنص حول آفاق جديدة تقع في تلك المنطقة الوسطى بين الواقع و الخيال و كما هو معلوم أن الحلم داخل القصيدة لا بد أن يكون ذا طبيعة فردية خالصة ، حتى أن الشاعر كان مضطرا إلى أن يلتمس له – أحيانا – أسبابا موضوعية تجعل تعبيرها عنه يكسب صفة " **القضية** " التي يعيش فيها الشاعر ، و لهذا يبقى ما يشبه " **المعادل الموضوعي** " ، لكن الأمر يختلف عند شعراء الأرض المحتلة ، فالحلم عندهم واحد ، يتمثل في استرجاع الحرية التي سلبت منهم ، بمشاركة الجميع (**الحاكم والمحكوم**) ، وبالتالي الحكم عندهم قد خرج من طبيعته الفردية الخاصة ، ليدخل مخيلة كل موطن فلسطيني يحب وطنه ويغار عليه ، حتى و إن كانت هاته الحرية شبه مستحيلة ، لذا نجد البعض يفضل المنفى بحثا عن الهدوء ، كما رأينا ذلك عند الجندي الذي

" ودعني، لأنه يبحث عن زنابق بيضاء
عن طائر يستقبل الصباح
فوق غصن زيتون
لأنه لا يفهم الأشياء
إلا كما يحسها .. يشمها
يفهم – قال لي – أن الوطن
أن أحتسي قهوة أمي ..
أن أعود ، آمنا مع المساء ." (15)

فالحلم عند هذا الجندي هو أن يعيش حياة بعيدة عن الحرب و أوزارها ، و لا يهمه إلى أي مكان يذهب ، حتى و إن كان المنفى المكان الذي يستقر فيه .

فصورة الحلم إذن غامضة تحتاج إلى تفكيك و تأويل و قراءة معمقة ... لأنه – كما هو معروف عنه – يختصر الزمان و المكان و لا يعترف بالمنطق ، نابع من اللاشعور الفردي ، و هذا الأخير هو الذي يفسر لنا الفوضى التي نجدها على مستوى الصورة هذا من جهة ، و منت جهة أخراة " أنه لا يعترف بالتنسيق المنطقي للزمن ، و لا يعترف نتيجة لذلك بالنسبية ، و هذا ما يتيح للصورة الشعرية الخصوبة ، لما تتضمن من كثافه في الشعور .

الهوامش :

1- رولان بارث، لذة النص ، تر: فؤاد صفا و الحسين سبحان ، دار طوبقال ، بلقادير ، دار البيضاء ، المغرب ، ص: 59.

2- سيغمون فرويد ، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي ، تر: أحمد عزت ، ط2 ، القاهرة نقلا عن: محمد فتوح ، الرمز و الرمزية في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، ط2، 1978، ص: 114.

3- علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر، ص: 42.

4- عبد الإله الصائغ ، الخطاب الشعري الحد اثوي و الصورة الفنية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1، 1999، ص: 62.

5- آن فرايدي ، الأحلام و قوامها الخفية ، تر: عبد العالي الجسماني ، الدار العربية للعلوم ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1995، ص: 426.

6- محمود درويش، الديوان ، المجلد الأول، دار العودة ، بيروت، محاولة رقم سبعة (1973) ، ص: 512.

7- م،س،ق: أوراق الزيتون (1964)،ص: 69.

8- إلياس خوري، دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشيق ، كانون الثاني ، مصر، ط1، 1979، ص: 80.

9- محمود درويش، الديوان ، المجلد الأول ، آخر الليل، ص: 192.

10- م،س،ص: 194- 195.

11- م،س،ص:149- 195.

12- م،س،ص: 195.

13- مهند محمد الشعبي ر، مرجعيات الفعل الإبداعي – مدخل لقراءة الفعل في تجربة محمود درويش، الشعرية ، (1960- 1970)، دراسة، دار الينابيع للطباعة و التوزيع و النشر ، ط1، 2002، ص: 157.

14- عبد الإله الصائغ ، الخطاب الحد اثوي و الصورة الفنية ، الحداثة و تحليل النص، المركز الثقافي العربي ، بيروت، ط1، 1999، ص: 62.

15- محمود درويش، شيء عن الوطن ، ص: 231، نقلا عن تهاني شاكر – محمود درويش ناثرا، ص: 48.

16- بتصرف ينظر ، خليل موسى ، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر ، مطبعة الجمهورية ، دمشق، ب. ط، ص: 37.

17- محمود درويش، الديوان ، المجلد الأول ، ص: 195.

19- حسين نجمي ، في جماليات الكلمة – دراسة جمالية بلاغية فنية – من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ب.ط، 2000، ص: 14.

20- جمال شحيد، ولد قصاب ، خطاب الحداثة في الأدب – الأصول المرجعية – دار الفكر ، ط1، 2005، ص: 503.

21- كاملي بلحاج ، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة – قراءة في المكونات و الأصول – دراسة،من منشورات اتحاد الكتاب،دمشق، ب. ط.، 2004، ص: 14.

22- عاطف جودة نصر ، الرمز الشعري عند الصوفية ، دار الأندلس و دار الكندي ، بيروت، ط1، 1978، ص: 114.

24- ديزيرا سقال، من الصورة إلى الفضاء الشعري ، - العلائق ، الذاكرة ، المعجم و الدليل ، قراءات بنيوية ، دار الفكر اللبناني للطباعة و النشر ، بيروت ، 1993، ص: 25.

- سميح القاسم، الديوان ، دار العودة ، بيروت، ص: 646- و ما يليها .25

- فخري صالح ، المصادر اليومية للقصيدة العربية ، مجلة العربي ، ص: 100.26

- محمود درويش، الديوان ، ورد أقل ، المجلد الثاني، ص: 329.27

28- فخري صالح، م.س، ص: 101.

29- فولفغانغ إيزر، فعل القراءة – نظرية جمالية التجاوب في الأدب- منشورات مكتبة المناهل ، مطبوعات النجاح الجديدة، دار البيضاء ، تر: حميد لحميدان ، د.ط، د.ت، ص: 101.

- محمود درويش، المجلد الثاني، بيروت، ص: 120.30

- م.س، مج: أحد عشر كوكبا، ط1، 1992، ص: 80.31

32- عبد العزيز مسهولي، الشعر و التأويل – قراءة في شعر آدو نيس – إفريقيا الشرق ، بيروت، لبنان ، ط1، 1998، ص: 15.32